الجنية العاشقة

للكاتب الفرنسي اميل زولا

أرهف أذنك يا نينون ! إن مطر ديسمبر يلطم الزجاج ، والهواء يرسل أنينه ، ويردد شكواه .. إنها أمسية من الأمسى الباردة ، التي يقضقض البائس فيها من القر ، أمام قصر الغنى الغـــارق في اللذائذ تحت توهج الذهب ! ... إخلعي حذاءك هناك ... وضعي حليتك الثمينة هنا .. وتعالى إلى أحضاني ، فسأروى لك قصة من أروع قصص الجان

نينون ! هناك على ذروة الجبل قصر عتيق ساد الظلام فيه وجثم الحزن فوقه .. ما ترين إلا أبراجا صاعدة نحو السماء ، وأسـوارا منيعة شماء ، وجسورا متحركة جهزت بالسلاسـل ، وملئت برجال أولى بأس شديد ، ابوسهم الحديد ، يسهرون الليل والنهار على الشرفات ، ولا يجدون راحة أو سلوة إلا بجانب سيد الحصن الجبار ، الكونت أنكيران

لو كنت رأيت ذلك الكونت يا نينون ، وهو يتنزه في مماشي القصر الضيقة ، وسمعت قرقعة صوته ينذر بالوعيد ، إذن لأصابك الجزع ، واضطربت كما تضطرب أوديت ابنة أخيه .. ! تلك الحسناء الرهيب التي تفتحت أنوثتها بين فرسان قساة ، كما تتفتح زهرة الأقاح ، إذا تنفس الصبح ، تحت قبلات الشمس المنحوك بين أشواك الجبال

كانت وهي طفلة ، إذا أبصرت عمها الشيخ ، وقد ضمت إلى صدرها الذي زرت(١) عيناهـا وهبت مذعورة . تذرف الدمع . أما الآن فهي في ربيع الحياة . إن ثديها يافتاني يبثان الشكوى ويرسلان الآهات . وما يزال الخوف يستولي على نفسها كلما طلع أمامها هذا المحارب القديم ...

وكانت تأتي إلى برج بعيد ، تتلهى فيه بحياكة أعلام ورايات فإذا أعياها هذا العمل الموئس لجأت إلى الله تبثه حزنها وتدعوه ، أو قلبت طرفها في السماء الضاحكة وسرحت بصرها في الروح الحادرة ... وكم من المرات ، يانينون ، كانت تقوم من مهجعها وقد سجا الليل وهف النسيم لتنظر إلى النجوم ... وكم من المرات كان قلبها يخفق لهـذا المشهد الساحر ، ويحن إلى تلك الروح المتواثبة نحو الأفق البعيـد ، ثم تسائل الكواكب عن ذلك الشيء الذي يتلاعب بروحها ويثير شجونها ...

ومرت بعد تلك الليالي التي سـاهرت فيها النجم وبعد ذلك الحنين اللاهف للحب لو أنها ضربت يوما عنق هـذا الفارس الهرم فوقصتها (٢) ولـكن ، وا أسفـاه ! ما كان لها حول ولا قوة ... إن كلامه جاف يرعب ، وإن نظراته جامدة تفزع ... فكانت تأخذ الإبرة مضطربة الحواس واجفة القلب وتعود إلى وشيها الشاق !

إنك تأسفين ، يانينون ، لتلك الحسناء ، إنها كالزهرة الريانة ذات العبير الطيب والأريج الشذي التي يصدف الناس عن رائحتها ويلهون عن جمالها ... !

كانت ترنو يوما بعينين حالمتين إلى قربتين تريدان الهرب من الحصن ، فسمعت صوتا عذبا يتعالى عنـد باب القصر ، فانحنت من الكوة ، وإذا شـاب حلو القسمات وسيم المنظر ، تأنس العين لمرآه ، يطلب المبيت ، مرسلا أنشودة بصوت رخيم ما فهمت لها معنى ولـكن خفق لهـــا قلبها . ورأرأ الدم في عينيها ، ثم فاض ... فسـاقطات درا من نرجس ، وبللت غصنا من المارجولين (٣) كان بين يديها ..

في سنة ١٨٦٤ كتب أميل زولا أقاصيص رائعة صدرت تحت عنوان « أقاصيص إلى نينون » صور الكاتب فيها صفحة من صحائف صباه ، إذ كان في البروفانس إلى جانب فتاته نينون يلتمس السعادة ويتـذوق اللذة ، ويذكر كيف كان يقص عليها ، كل يوم ، فوق الهضاب ، وبالقرب من البلوط ، وبجانب المولد ، أقاصيص طريفة : وهي ذكرى لشباب فاتل وحب خالد

وزولا من أكبر الكتاب الذين عرفتهم فرنسا في القرن الماضي ، وكان مفنا ، إذا قرأت كتاباته وجدتها تفيض بالحياة وتتدفق بالشعر ، وقد كان ميل إلى الابداعيين ، ويحذو حذوهم ؛ وألف قصصا كثيرة ، يظهر لك من خلالها أسلوبه المشرق ، الذي جمع بين سحر الفن وجمال التصوير

(١) يقال رزت عينه إذا تولدت من خوف أو غيره

(٢) ولصتها أي كسرتها يقال ولص الرجل إذا دلت عنقه

(٣) السمسق ، وهو نبات طيب الرائحة له أزهار كأزهار الياسمين ..

وساد سكون عميق، وبقيت الأبواب مغلقة . ونادى فارس من أعلى الأبراج قائلا :

إذهب وشأنك أيها الغريب ، فليس هنا سوى فرسان محاربين ..

وهم الطارق أن يذهب . ولكن أوديت ، التي علق بصرها به ، فما يطرف أو يتحول ، تركت الغصن رطبا بالدمع ، يفلت منها ، ليقع تحت أقدامه ورفع الشاب رأسه ، فإذا وجه صبوح يطل عليه ... والتقط الغصن ابشبه لثما وتقبيلا . ثم ابتعد عن القصر ، وهو ينظر كل لحظة إلى الفتاة

فلما غيبه الطريق المنحدر قامت أوديت تدعو الله وتصلي له ؛ ثم شكرت للسماء، وأحست السعادة فرقصت فرحا ، وهي لا تدري لكل ذلك سببا .. !

فلما كان الشفق جلست إلى راية تصلحها ، وهي تفكر في ذلك الفتى ، ثم داعب النعاس أجفانها فأذبلها وارتمت على فراشها ... واستسلمت لنوم غرق مضطرب ، ورأت حلما ...

إنه حلم ساحر يا نينون ! خيل إليها أنها ترى غصن المارجولين الذي أفلت من يديها ، وإذا بجنية ، ما رأت العين أجمل منها تخرج من زهرة تتفتح بين أوراق الغصن المرتعشة . ولها أجنحة من اللهب ، وتاج من الأزهار ، تتدثر برداء أزرق ، لونه رمز الأمل ، وتناديها بصوت حلو النبرات :

أوديت ! أنا الجنية العاشقة ! أنا التي أرسلت إليك لويس هذا الصباح ذاك الفتى ذا الصوت الحنون ... أنا التي ، وقد رأيتك تذرفين الدمع ، جئت لأجففه .. أضرب في الأرض ، وأؤالف بين قلوب العاشقين . ! ... أزور الكوخ ، كما أزور القصر ، وأجمع عصا الراعي إلى صولجان الملك . أنا التي أزرع الورد تحت أقدام المحبين .. ! ثم أربط بينهم بيدين تختلج القلوب لهم فرحا . أعيش بين الأعشاب ، وفي جذوة الموقد المتأكلة ، وتحت رفارف أسرة الأزواج ... ! وحيث أضع قدمي فهناك يقوم حديث الغزل ، ويكون همس القبل ! لا تبكي أوديت ، فقد أتيت لأجفف دموعك ...

وعادت الجنية إلى الزهرة التي خرجت منها، واختفت هناك ..

أنت تعرفين يا نينون أن جنيتنا في الوجود .. انظرى إليها ترقص في الموقد ، وتأبى أن لا يفكر بها

واستيقظت أوديت وأشعة الشمس تنير غرفتها والعصافير تصدح بالأغاني والنسيم الصافي يداعب شعرها المقدود الأشقر ، وقد حمل عبير القبلة الأولى التي سرقتها من الأزهار على عجل .

فنهضت والنفس مفعمة بالفرح ، وقضت يومهـا تغني تارة وتنفض(٤) الحقول أخرى ، وترسل ابتسامة رقيقة لكل عصفور يحلق ، والأماني تغريها فتقفز هنا وترقص هناك ، ثم تضرب كفيها الصغيرتين بعضهما إلى بعض بقوة وسرور ...

فلما كان الطفل تركت مخدعها ، وهبطت إلى ردهة القصر الكبرى فوجدت فارسا يصغي إلى حديث عمها الكونت ، فعمدت إلى مغزلها واتخذت مكانا إلى جانب الموقد تسمع إلى صر صر يغني

ونظرت إلى الشاب ، فإذا غصن المارجولين بين يديه ، يا لله ! إنه لويس ... وعلت وجنتيها حمرة ونضرة ، وكادت ترسل صرخة تدوي في فضاء الردهة ، ولكنها انحنت على الموقد تؤرث النار فيسمع لها حسيس كأنه بث الأحزان ، ويتمايل اللهب ، ويفور الموقد ، وتهيج النار . وفجأة ينبجس من الموقد نور شديد وتظهر الجنية العاشقة ، وقد افتر منها الثغر ، ومال منها الجيد ... فتجمع ثوبها الأزرق بين يديها ، وتنطلق في الغرفة دون أن يراها أحد إلا أوديت ...

أما الكونت فكان مسترسلا في حديثه يقص نبأ معركة هائلة وقعت مع الكفار ، ويقول :

— ... فتحابوا يا أولادي .. ودعوا أشباح الشيخوخة الزاهدة . أبقوا لها الأقاصيص بجانب النار المشتعلة ، ولا تجمعوا الآن إلى زفير النار سوى وسوسة القبل ..! سيكون لكم يا أولادي من ذكرى هذه الساعات التي ذقتم بها اللذة ما يخفف أحزانكم وهمومكم فيما بعد ... والمرء عندما يحب وهو في السادسة عشرة من عمره ، فالكلام لا يجديه أتفه نفعا . إن نظرة واحدة خير من خطاب طويل . تحابوا يا أولادي واتركوا الشيخوخة تتكلم ...

وأظلت الجنية العاشقين بأجنحتها ، فغدا الكونت لا يرى لويس الحبيب ، وهو يطبع قبلته الأولى على جبين أوديت الحبيبة

(٤) نفض الرجل المكان : إذا نظر إليه ليرى كل ما فيه

المرتعشة !

نينون ! يجب أن أتكلم لك على أجنحة جنيّ .. لقد كانت شفافة كالبلور ، دقيقة كأجنحة الذباب ، ولكنها أيضا كانت تنقلب إلى ظلام دامس كثيف فلا يتجاوزهـــا عندئذ رنين القبلات ووجيب الأفئدة ... ليكون العاشقان بنجوة من العيون ! وهكذا ... وبينما الشيخ غارق فى حديثه عن معركة المؤمنين والكفار ، كانت معركة القبل قائمة بين لوئيس وأوديت ... !

لقد حضن الجسم الريان ، وقبل الخد الأسيل ، ودغدغ النهد الناعم ، وتمتم بالطرف الوسنان ... والشيخ فى حديثه غارق مسترسل ... !

ليت شعرى ما تلك الأجنحة ... ؟ إن الفتيات ليجدنهن أحيانا — كما قيل — فيأمن شر الأبوين ويتمتعن بالحبيب ، أحقا ما يقال يانينون ... !

واختفت الجنية العاشقة ، وقد أنهى الكونت قصته ، وذهب لوئيس شاكرا لضيفه الكونت... ونامت الفتاة تحفها السعادة ، والأمانى حولها حوم ترفرف ، والعين قريرة والبال هادئ

أما هذه الليلة ، فقد رأت جبالا كانها أزاهير ، زينت بألوف من الكواكب المصابيح نور كل منهـــا أشد وضاءة من نور الشمس ....

وأصبح الغد ، فلما متع النهار نزلت إلى حديقة القصر والتقت ثم بفارس حياها فردت له التحية، ولما ابتعد عنها نظرت إليه ، فإذا غصن المارجولين معه رطب بالدمع . وها هى ذى أوديت تلتقى بالحبيب مرة أخرى ... لقد عاد إلى القصر بعد أن تنكر بزى فارس . أواه يانينون ! اشد ما يكون السرور عظيما عندما تلتقى الحبيبة بفتاها فى وضح النهار ... !

وأجلسها على مقعد مخضوضر من العشب تحت ظلال السنديان ، واللسان صامت والعقل شارد ، وراحت العيون تتناجى ... والأفئدة تصغى ...

لن أقول لك يافتاتى ما تحدثت به شجرات السنديان عندما رأت الحبيبين . إن فى سماع الحبيبة وهى بين يدى الحبيب لذة ، لقد جاءت الطير كلها تستمع إلى لحن الحب ، وتبقى أعشاشها فوق تلك الشجرات ...

وسمعت الفتاة على حين بغتة وقع أقدام الكونت وهو يمشى فى الممر الطويل . . فأصابتها الرجفة وانتظرت شرا مستطيرا . . ولكن .. إن اليذبوع لايزال يرسل خريره الحلو الشجى ، وهاهى ذى جنيتنا الحسناء تأتى فتظلل العاشقين بأجنحتها والهواء رخى ، ويختفيان عن الأبصار ، ويعاودان حديث القبلات . . ويقترب الكونت ، فيأخذه العجب ! إنه ليسمع أصواتا ولا يرى أناسا !

وانبرت الجنية الحسناء تقول :

— أنا حامية الحب ، أضرب على بصر من لا يحب غشاوة فلا يسمع أو يرى ! لا تخافا بعد اليوم أمرا ، أيها العاشقان الجميلان .. بل أجيبا داعى الحب فى وضح النهار ، والجو صاف وفى الليل والنسيم يرف ، وبجانب الينابيع والأوراق تحف . أرسلنى الرب لأصرف عنكم أذى الرجال ، هؤلاء الساخرين من كل فضيلة ، وحبانى بأجنحة من الحب وقال : «اذهبى ولتتحاب القلوب ! فيا بشركم .. إنى هنا أحمى الحب وأرعاه ...

ثم ذهبت تلتقط الندى غذاءها الوحيد تاركة وراءها الحبيبين ، وقد علق فم بفم ، واشتبكت كف بكف ..

وبقيا حتى الليل ؛ فلما دنت ساعة الفراق ظهر الأسى فى نظراتهما ، فأسرت الجنية اليهما بقول يخيل أنه راقهما ، فانبسطت أسارير وجهيهما إذ سمعاه . ثم رجواها شيئا . فأخرجت قضيبا معها ، ولمست به جبينى العاشقين

وفجأة ... أوه ! يا نينون . مالك دهشت

هكذا . انتظرى سأتم قصتى . . وفجأة انقلب لوئيس مع أوديت إلى غصنين من أغصان المارجولين ! نعم من المارجولين الغض الزاهى . نبتا جنبا إلى جنب ، ولامست أوراق الأول أوراق الثانى ، واشتبكا . هنا يا فتاتى . تتفتح أزهار لن يمد القبول اليها يده ، بل تبقى .. ويبقى أريجها متضوعا إلى الأبد

والآن يا نينون ، عندما نعود عند الروج الخضراء سنبحث عن أغصان المارجولين وسنسألها فى أية الزهرات تختبئ الجنية الحسناء . إن لقصتى يا صديقتى مغزى ، وما كنت لأقصها عليك إلا لأنسيك مطر ديسمبر الذى يلطم الزجاج وأبث فيك هذا المساء شيئا من الحب ... نحوى ... أنا !

ص . م